

ملخص

يتناول المقال رحلة الخط العربي من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية من خلال ثلاث نقاط رئيسية هي: مراحل اختراع الكتابة والعوامل الممهدة لها، والنقوش العربية الجنوبية بشقيها الجنوبي والشمالي، والكتابات العربية الشمالية.

مقدمة

لنا أن نتصور أن عمر البشر على الأرض يتعدى أربعة مليون سنة، وأن البشرية في تطورها الفيزيولوجي والدماغي والحسي والحركي استغرقت زمنًا طويلاً، حتى عبّرت عن هذا التطور في مناحي الحياة كافة، بدءاً من انبثاق اللغة كأداة للتفاعل بين أفراد المجتمع، مروراً بنشوء الاعتقادات الدينية، ثم تطورت أدوات التفاعل الاجتماعي الاقتصادي المستندة على تعمق التجذر في الأرض والتفاعل مع البيئة، ما أدى بالنهاية إلى ابتكار الزراعة والتدجين ومن ثم ابتكار الكتابة/ الوجه الوثائقي للغة المنطوقة/ وإنشاء المدن الأولى، ومن ثم ابتكار الأبجدية التي شكلت الأساس والرائز لتقوية وأصبر التفاعل الإنساني، والمضي قدماً في التطور الكتابي حتى وصلنا إلى ما نحن عليه في عصر المعلوماتية. فبين اختراع الكتابة ونشوء الإنسان مسافة زمنية تتعدى الأربع مليون سنة وهذا ما يجعلنا نشير إلى حادثة الكتابة في سياق تاريخ الحضارة الإنسانية. فأهمية الكتابة أنها قسمت التاريخ البشري إلى شقيه الأساسيين: ما قبل التاريخ والتاريخ.⁽¹⁾ وأهمية الكتابة أيضاً أنها وثقت العالم الشفاهي المنطوق، وساهمت في حفظ التراث الشفاهي من الاندثار بما يحمله من معطيات معرفية وخبرات تراكمت على مد العصور القديمة.

وأهمية الكتابة أنها نقلت الكلام من العالم السمعي إلى عالم حسي جديد هو عالم الرؤية بما أدى إلى حدوث تحول وانعطاف كبير في آلية التفكير والكلام والتفاعل الإنساني. فمن الرمز الشفاهي الطبيعي انتقلنا عبر الكتابة إلى الرمز الحسي ثم المجرد الذي اختزل عالماً مليئاً بالرموز والمعطيات الرمزية ما أدى إلى عمق التفاعل والتفاهم بين البشر، ولتبيان أهمية الكتابة نعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، حيث يروي هيرودوت حادثة جرت حين اقتحم الملك الفارسي داريوس بجيشه بلاد الأسقوثيين،⁽²⁾ وكون أن مجتمع هؤلاء لم يكن مجتمعاً كتابياً، فقد اعتمدوا في مراسلة الملك الفارسي على الرموز الطبيعية بتأويلاتها المختلفة.

فقد أرسلوا له رسالة تحتوي على طير وفأر وضيعة وخمسة سهام. وهنا كان على الملك أن يفك الرسالة عبر مستشاريه، حيث توصلوا إلى أن الأسقوثيين يقصدون الحرب، فقد فهموا الرسالة كما يلي: "إذا لم تختفوا في السماء كالطيور، أو تتواروا في الأرض كالفئران، أو تختبئوا في الماء كالضفادع، فإن الموت بانتظاركم". ولم يقتنع الملك بأراء مستشاريه، حيث فهم رموز الرسالة بأنهم يضعون أنفسهم تحت سلطة الملك ويقدمون له السماء والأرض والماء وقد



حكاية الخط العربي "من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية"

أ. د. بشار محمد خليف

كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي
خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم
دمشق - الجمهورية العربية السورية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بشار محمد خليف، حكاية الخط العربي: من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية- دورية كان التاريخية- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٦٢-٦٩.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

تخلوا عن الحرب. والذي يبدو أن فهم الملك لرموز هذه الرسالة أدت بجيشه إلى الهزيمة.⁽³⁾

إن هذه الحادثة تؤكد على أهمية منجز الكتابة في تعميق التفاهم البشري والتفاعل الإنساني. والحقيقة أن الكتابة لم تظهر كاختراع من العدم، بل سبق ذلك مبهّدات تطويرية أدت إلى تبلور منجزها في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في المشرق العربي/ الهلال الخصيب/. فالمهّدات الأولى لاختراع الكتابة وجدت في العالم الزراعي حضانتها الأولى، في الألف التاسع قبل الميلاد.

أولاً: مراحل اختراع الكتابة والعوامل الممهّدة لها

إن العالم الشفاهي هو عالم مترامي الأطراف، لا يحده حد ولا يمكن تعيينه بقواعد طالما أن هناك غياب في النظم والقواعد والمحددات التي تكفل تحديد بدايته من نهايته. واعتماد هذا العالم على الرموز وهي طبيعتها رموز نسبية تجعل الاتفاق حولها ضرب من المحال. فالشمس مثلاً في المناطق الباردة مناخياً هي رمز إيجابي لمجتمعاتها، في حين أنها رمز سلبي في المناطق الحارة وهكذا، فالكتابة في انجازها، حسمت جهة المعرفة واتجاهها وانعطفت بمسار الحضارة البشرية نحو عالم جديد. وثمة عوامل ساهمت في نشوء الكتابة ومهدت الطريق لابتكارها:

أولاً: إن انتقال المجتمعات القديمة من حالة الصيد والتقاط الثمار إلى الزراعة وتدجين الحيوان وبالتالي الاستقرار، أدى إلى تأسيس الظهورات الأولى لعالم الكتابة المنبثق من تطور المجتمعات الاقتصادي والاجتماعي وتفاعلها، وبالتالي ضرورة إيجاد ناظم توثيقي للتفاعلات والتبادلات التجارية.

ثانياً: إن نمو التجارة الفردية أولاً، ثم تبادل السلع والمنتجات حفّز لابتكار وسائل تجارية بدئية عبر العد والأرقام، وهو ما تطور لاحقاً إلى نمو التفاعل والنشاط التجاري بين المجتمعات الصغيرة. ثالثاً: يبدو أن الكتابة في تمظهراتها الأولى، انبثقت من عالم الحساب والأرقام فهي الجنين في رحم الرياضيات البسيطة، حيث أن الحاجة أم الاختراع.

وتشير المعطيات إلى ارتباط الزراعة وعالمها بظهور الأطوار الأولى الممهّدة للكتابة حيث عمدت المجتمعات الزراعية آنذاك إلى استخدام أشكال من الطين لتوصيف منتجات الزراعة من حبوب وفاكهة وزيت وغير ذلك من الماشية المدجنة، وذلك في عمليات التجارة وتبادل المنتوجات والسلع. وقد عثر على هذه الأشكال الطينية في مواقع عديدة في المشرق العربي/أبو هريرة - المربيط - تل أسود - تل الغريفة - السويات الدنيا من موقع رأس الشمرة - تل براك - تل حلف - ومواقع في فلسطين والرافدين وإيران والأناضول. وقد استمر وجود هذه الأشكال صعوداً حتى الألف الرابع قبل الميلاد.⁽⁴⁾

ويذكر "أوبنهايم" عن نظام للجرد في مدينة نوزي الرافدية في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كان إلى جانب

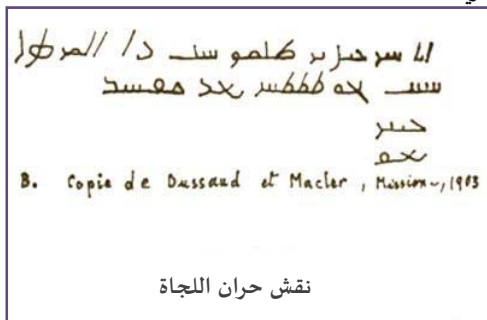
الكتابة المسمارية يوجد نظام استخدام لفيش لجأ إليها كتّاب القصر، وهذا النظام مستمد من طرق قديمة تعود لما قبل اختراع الكتابة. حيث أن هذه الفيش كانت ترمز لحيوانات/ كل فيشة ترمز لحيوان/ وفي حال سوق القطيع إلى مدينة أخرى فكان يتم تحويل الكمية اللازمة من الفيش معها. وقد كشفت التنقيبات عن وجود (٤٨) فيشة وضعت ضمن لوحة طينية مجوفة شبيهة بالمغلف كتب على جدرانها بالإشارات المسمارية (٢١) نعجة، (٦) حملان، (٨) خرفان، (٦) عزرات.....إلخ.⁽⁵⁾ وهذا النوع من الجرد الحسابي يعود وفق الدلائل الأثرية إلى حوالي ٨ آلاف عام.

كانت الفيش هذه تصنع من الطين وتشوى على النار، تبلغ أحجامها 1 - 3 سم ، وتأخذ أشكالاً كروية، مخروطية، اسطوانية، قرصية، هرمية ثلاثية السطوح. وقد أكدت الأبحاث أن نظام الفيش هذا هو نظام سابق للكتابة، بدليل استمراره حتى الألف الرابع مع ازدياد في معالم تطوره حيث أخذت التقنيات منى جديداً عبر ظهور فيش ذات أشكال مثلثية وشبه معين مزودة بإشارات وعلامات إضافية كالحفر والتظليل بحيث أصبحت قادرة على إعطاء معلومات مفصلة عن نوعية المواد المرموز إليها بالنماذج الأصلية من الفيش.⁽⁶⁾

ومع حوالي 3300 ق.م، أصبحت هذه الفيش توضع داخل مغلفات طينية على شكل كرات مجوفة، وقد عثر على هذه في مواقع عدة في الهلال الخصيب/ أوروك - حوبة كبيرة/ وبين ٣٣٠٠ - 3200 ق.م تطورت هذه التقنية إلى وضع بصمات خاصة على الجدار الطيني للمغلف الكروي لتمييز محتويات الأغلفة. وبقي هذا النمط مستخدماً حتى 1500 ق.م. وتشير "دينيزا شمندت بيسيرا" إلى أن المغلفات ذات البصمات كانت الأساس الذي قام عليه مجمل نظام الكتابة المسمارية، حيث نجده في مواقع أوروك وخفاجي وحوبة كبيرة وجبل عارودة وماري.

وعلى هذا الأساس الممهّد لاختراع الكتابة المسمارية يمكننا تحديد ورصد مراحل تطور الكتابة وفق ما يلي:

- في 8000 ق.م ظهرت الفيش الثلاثية الأبعاد.
- في 3300 ق.م ظهرت المغلفات الحاوية على الفيش ذات البصمات
- في 3300 - 3200 ق.م ظهرت اللوحات الأولى ذات البصمات.
- في 3100 ق.م ظهرت الكتابة التصويرية التي تطورت إلى الكتابة المسمارية.⁽⁷⁾



الكتابة التصويرية: PICTOGRAPHY

تعتبر من المراحل الأولى من الكتابة، حيث يتم رسم صورة الشيء أو جزء منه للتعبير عنه. فصورة اليد تعني يداً، والسمكة سمكة، ورأس الثور ثوراً، وهكذا، كما أن تصوير ثلاث تلال تعني جبلاً أو بلاداً جبليّة،⁽⁸⁾ فالصورة هنا ليست الغاية بل الشيء الذي تمثله الصورة نفسها. وقد تطورت الصورة فيما بعد إلى رموز أو إلى إشارات مسمارية ليس بالضرورة أن تعبّر عن المعاني الأصلية للصور المرسومة بل تعبر أيضاً عن أفكار ومعان لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم وهنا أصبحنا أمام الكتابة الرمزية.

الكتابة الرمزية: IDIOGRAM

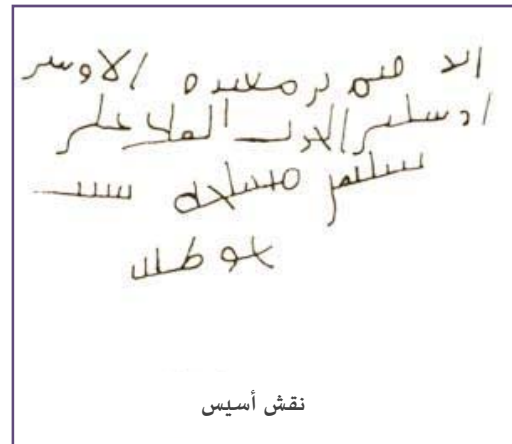
في الكتابة الرمزية هنا نجد مثلاً أن صورة الشمس التي كانت تدل على الشمس فقط بدأت تأخذ مدلولات جديدة مثل الضوء والنهار واليوم والحرارة، بمعنى كل ما يتعلق بالمعنى الأول للشمس. كما أن رسم القدم مثلاً صار يدل على الوقوف والمشي والذهاب والركض. وشيئاً فشيئاً صار بالإمكان دمج إشارتين أو أكثر للحصول على معنى جديد فمثلاً:

يتم رسم: (فم + خبز) = يأكل ، (رجل + كبير) = ملك.⁽⁹⁾

وعثر في مواقع عديدة في المشرق العربي على منحوتات عليها خطوط ودوائر وأوعية فخارية وسنابل، وهي تدل على أعداد وكلمات، فالخطوط والدوائر تمثل الأعداد، أما الرسومات كالأوعية والسنابل فتدل على كلمات فالوعاء يشير إلى مادة سائلة والسنابل إلى النباتات، أما الخطوط فتشير إلى الأرقام.⁽¹⁰⁾

الكتابة المقطعية أو الصوتية: PHONETICS

تبعاً لسنة التطور، فقد تمخض عن تطور الكتابة الرمزية بُعد جديد تجلى في أن كل رمز أخذ صوتاً معيناً بغض النظر عن مدلوله الصوري. وصار كل رمز يحمل عدة معان كما يمكن أن يشكل كلمة أو جزءاً من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. ففي الكتابة المقطعية أمكن التعبير بشكل أدق عن الأحداث والعواطف والأفكار والمعاني الأخلاقية، وأصبحت المقاطع الرمزية مفرغة من معناها وصارت قيماً صوتية. وقد عرفت هذه الكتابة من مجموعة نصوص تعود إلى حوالي 2800 ق.م في المشرق العربي، واتضح أن اللغة المستخدمة فيها هي اللغة السومرية.



الجدير ذكره هنا: أن الكتابة المسمارية في مراحلها الأولى كتبت من الأعلى إلى الأسفل بشكل حقول في كل منها جمل ثرت كلماتها كيفما اتفق، وتبدأ القراءة من اليمين نزولاً. ثم انقلبت الكتابة 90 درجة، فأصبحت تقرأ من اليسار إلى اليمين.⁽¹¹⁾ وقد بلغ عدد الإشارات المسمارية في البداية حوالي ألف إشارة في حوالي 2800 ق.م، ثم أصبح (800) إشارة، ومع بداية الألف الثاني قبل الميلاد أصبح عدد الإشارات (٥٠٠ - ٦٠٠) إشارة.⁽¹²⁾

الجدير ذكره أن سبب تسمية الكتابة بالمسمارية أو الإسفينية CUNEIFORM، لأن شكلها يشبه المسامير أو الأسافين، وهي تسمية حديثة مأخوذة من اللاتينية CUNEUS إسفين، و form شكل.⁽¹³⁾ وقد انتشرت الكتابة المسمارية بفضل المشرقيين - الأكديين والعموريين- الكنعانيين في ممالكهم العديدة، واستعملت في بلاد فارس الجنوبية والأناضول وبلاد أورارتو (هضبة أرمينيا) ووصلت حتى مصر (رقم تل العمارنة)، وكتبت بها بعد السومرية لغات ولهجات عديدة مثل: الأكديّة / الأكديون طوروا الكتابة المسمارية، وكذلك الآبلاطيون والآبلاطية والأمورية - الكنعانية، وكذلك لغات أخرى كالكاشية والحوورية - الميتانية والحثية والعلامية والآورانية والآمينية الفارثية.⁽¹⁴⁾ واستمر استخدام المسمارية حتى القرن الأول الميلادي حيث عثر في أوروك الرافدية على آخر نص مسماري يعود إلى 75 ق.م.

الأبجدية الكنعانية:

إذا كان اختراع الكتابة المسمارية قد تم في الجناح الشرقي لللال الخصب ومنطقة الفرات الأوسط الشامية، فإن اختراع الأبجدية حدث في مناطق الوجه البحري للمشرق العربي في أجاريت وجبيل في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً. فعبر أبجدية أجاريت تم اختزال العلامات المسمارية إلى تسع وعشرين أو ثلاثين علامة، يمكن أن يكتب بها كل نتاج العقل البشري في كل زمان ومكان. وإن الحروف الواردة في رقيم الأبجدية الأجاريتية - الموجود حالياً في المتحف الوطني بدمشق- هي بالترتيب الذي نجده في الكتابة الآرامية والعربية.

وفي تطور لافت بين اكتشاف نص أجاريتي أبجدي يتبع ترتيب الأبجدية العربية الجنوبية لا الشمالية، ما يقدم دليلاً على صلات مبكرة بين جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام داخلاً وساحلاً، واللحمة المتينة بين الكنعانية والعربية في الألف الثاني ق.م.⁽¹⁵⁾ ففي أجاريت المدينة الأثرية السورية على الساحل السوري تمت الصياغة النهائية لتطور الكتابة المسمارية. فعبر الكتابة الأبجدية استطاع الإنسان تصوير كل صوت من أصوات اللغة برمز خلق من أجله، فأصبح الرمز الكتابي يعكس صوتاً فرداً وصارت مجموعة الرموز تعكس كلمات بألفاظها وأصواتها كاملة. وهكذا أصبح بإمكان كل إنسان أن يكتب لغته كما يتكلمها ويسمعها، وأن يقرأ ما كتب غيره من ذوي اللغات الأخرى.⁽¹⁶⁾

وبين القرن السادس قبل الميلاد والرابع - في ريعه الأخير- قبل الميلاد، أصبحت الآرامية لغة دبلوماسية دولية في مختلف أرجاء الإمبراطورية الفارسية- الأخمينية، وهذه سميت "الآرامية الإمبراطورية". ومع الغزو المقدوني 331 ق.م للمشرق العربي وإيران انكششت الآرامية أمام اللغة اليونانية حتى أصبحنا في القرن الأول للميلاد أمام لهجات وكتابات آرامية مختلفة في المشرق العربي، حيث نجد أن هناك مجموعتان:

الآرامية الشرقية، وتتألف من:

- ١- السريانية بفرعها النسطوري واليعقوبي/ السريان هم الآراميون الذين اعتنقوا المسيحية/.
- ٢- لهجة تلمود بابل وقلمها هو الآرامي المربع.
- ٣- المندائية: في جنوب الرافدين، عرفوا في العصر الإسلامي الأول باسم "الصابئة".
- ٤- الحرائية: نسبة إلى مدينة حران شمال الرافدين.

الآرامية الغربية، وتتألف من:

- ١- الآرامية الفلسطينية: تحوي كتابات تلمود أورشليم وبعض كتابات المسيحية الأولى من أناجيل وغيرها.
- ٢- النبطية: كتابات الأنباط، حيث تطور القلم النبطي من القرن الثالث الميلادي حتى نهاية القرن الرابع، وكان له دور مهم مع الكتابة السريانية في ميلاد الخط العربي الحجازي.
- ٣- التدمرية: وتمثل نقوش دولة تدمر/ 33 ق.م - 272 م/ (20)

ويعتبر الخط الشطرنجيلي، من أشهر الخطوط الآرامية، وهذا أقدم الخطوط السريانية وأصلها جميعاً. ظهر هذا الخط في الرها العاصمة الروحية الأولى للسريان، وهذا الخط يذكر بالخط العربي الكوفي الذي تشير الأبحاث إلى أصله السرياني. (21)

كتابة المسند:

ازدهرت في جنوبي شبه الجزيرة العربية منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، حضارة عربية طورت كتابات قديمة، أطلق على قلم تلك الكتابات اسم "الخط المسند"، ويعتبر هذا الخط من أقدم الخطوط المعروفة في شبه الجزيرة العربية. وقد ساهم في إبداعه وتطويره أقوام عدة من سبئيين ومعينيين وقتبانيين، وكان آخر من كتب بهذا الخط هم الحميريون. أبجدية المسند تتألف من ٢٩ حرف، وتقرأ كتابات المسند الحميري من اليمين إلى اليسار، كما في الكتابات الكنعانية والآرامية والعربية، ويقرأ أحياناً من اليسار إلى اليمين. (22)

أما عن أصل الخط المسند، فلإي الآن لم يعرف مصدره وكيف انبثق، خصوصاً أن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات المعروفة. (23) وتشير بعض الأبحاث إلى أن الكنعانية والمسند مشتقان من أصل واحد، وكلاهما متان بصلة إلى الكتابة السينائية، وقد تطور كل منهما في بيئته الخاصة، وتغيرت بعض حروفه. (24)

ومع سقوط أجاريت مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بدأ بالانتشار الشكل الخطي المتمثل بخاصة في أبجدية جبيل الكنعانية - على الساحل اللبناني - التي تبلورت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن أقدم النقوش الأبجدية الكنعانية الساحلية، نقش تابوت حيرام - ملك جبيل- الذي يعود إلى نهاية القرن الحادي عشر ق.م. ومن الساحل السوري انتقلت الأبجدية الكنعانية إلى اليونان لتتطور هناك وتؤسس لعالم كتابي عالمي جديد.

وفي المشرق العربي استمدت الكتابة الآرامية، الأبجدية الكنعانية الساحلية/ التي تتفاوت في أشكالها مرونة واستدارة وارتفاعاً وتناسقاً إلى أن وصلت في حدود القرن الخامس ق.م إلى شكل منمق جميل يعرف بالخط الآرامي المربع الذي كتبت به النبطية والتدمرية وكتابات مدينة الحضر، كما كتبت به السريانية مع خطوطها المتعددة وكذلك الخط الهلوي الذي أصبح الخط الرسمي للدولة الساسانية من القرن الثالث الميلادي حتى العصر الأموي، وظلت آثاره باقية على النقود في العصر العباسي الأول. (17)

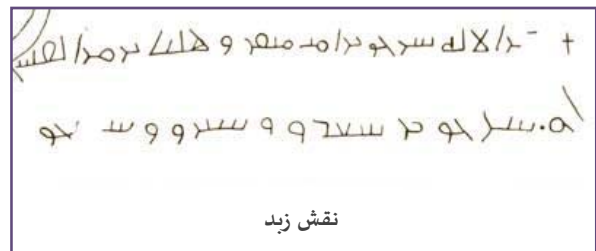
الجدير ذكره هنا؛ أن الكتابات الكنعانية الساحلية تعود أقدمها إلى حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد وأحدثها إلى مطلع العصر الميلادي.

الكتابة الآرامية: (18)

تعتبر الآرامية وليدة الأبجدية الكنعانية الساحلية وقد كتب الآراميون كتاباتهم الأولى بالأبجدية تلك. ويلاحظ المدقق أن النصوص الآرامية التي تعود إلى الفترة ما بين القرن العاشر وحتى القرن السابع قبل الميلاد، تتشابه إلى حد كبير مع الكتابات الكنعانية الساحلية المعاصرة لها. واستمر الأمر على هذا المنوال حتى القرن السادس قبل الميلاد، حيث بدأ الآراميون يطورون كتابة خاصة بهم. وبدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد تفرّع عن الكتابة الآرامية كتابات محلية في مختلف أنحاء المشرق العربي.

الجدير ذكره؛ أن آرامي بلاد الشام استعملوا الأبجدية الكنعانية الساحلية في حين أن آرامي بلاد الرافدين اقتبسوا قلمهم الأول من الكتابة المسمارية الرافدية، ثم ما لبث أن تطور لدى الطرفين كتابة آرامية موحدة في مختلف الدويلات الآرامية. (19)

ونتيجة للفاعلية التجارية النشطة للآراميين وتحكمهم بالقوافل التجارية بين الساحل الكنعاني وبلاد الرافدين وفارس والأناضول، فقد انتشرت لغة الآراميين وكتابتهم شرقاً تبعاً للمدى التجاري لهم، وساهمت الآرامية في تكوين بعض كتابات فارس والهند وآسية الصغرى والقفقاس.



نقش زبد

الكتابة العربية:

الجدير ذكره: أن أبجدية الجنوب تحاكي الأبجديات الشرقية، حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة فقط. أما لغة الجنوب في بناء الأسماء وتصاريح الأفعال والضمائر والمفردات، فنجد أنها على صلة باللهجة الأكادية والإثيوبية، ولا ترتبط في هذه الأمور مع اللغة العربية الحجازية. ويبدو أن الخط المسند بكافة أشكاله قل استعماله وذهب أدراج النسيان بعد سقوط الحضارة العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي.^(٢٩) حيث ستشهد الجزيرة العربية وبلاد الشام حركة ارتجالات ونزوحات لبني غسان إلى حوران في بلاد الشام ، وبني لخم إلى أرض الحيرة في الرافدين.

القلم اللحياني:

تؤرخ نقوش هذا القلم في حدود القرن الخامس وحتى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد عثر عليها بخاصة في منطقة العلا شمال الحجاز. يتميز القلم اللحياني بأنه خال من الشكل والتشديد والمد وغيرها، وهو ما يشكل صعوبة بالغة في قراراته، بحيث لا يمكن التمييز أحياناً بين الاسم والفعل. كما يلاحظ أن استعمال الفواصل بين الكلمات نادر جداً، أما سطور هذا القلم فهي على شكل قوس أو دائرة أو أشعة.⁽³⁰⁾

القلم الثمودي:

يؤرخ تواجد الثموديين بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي وامتد تواجدهم في المنطقة بين الحجاز وبلاد الشام وسيناء. وقد عثر على ما يقارب (١٧٠٠٠) نقش كتابي ثمودي. يتميز الخط الثمودي بأنه خال من الشكل والتشديد والمد وغير ذلك من إشارات الضبط اللفظي، وقد عثر على بعض الكتابات التي استخدم فيها بعض حروف العلة تعويضاً عن الحركات. ويلاحظ أن أعمدة الفصل بين الكلمات لم تستخدم، مع ملاحظة وجود نقاط بين الكلمات أو بعض الخطوط القصيرة في حالات نادرة. بقي أن نشير إلى أن الكتابات الثمودية ليس فيها اتجاه محدد لبدء السطور حيث يمكن أن نجد البداية في أي اتجاه كما تكون أحياناً مشتبكة مما يسبب صعوبة في قراءتها وفهمها.

إذا كان التواجد العربي تاريخياً يرقى إلى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر الملك شاروكين الأكدي، أنه قاتل قبائل عربية تقيم في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ثم أن نارام سين الأكدي استولى على أراضي متصلة ببابل، والتي سكانها من العرب، فإن مجال الكتابة العربية لم يكن قد ظهر بعد إلا مع الألف الأول قبل الميلاد. ولمناقشة واقع تطور الخط العربي ينبغي علينا أن نوصف واقع التواجد العربي منذ الألف الأول قبل الميلاد، وهو تاريخ وجود الكتابات العربية، مع الأخذ بعين الاعتبار جملة حقائق تتصف بالواقع الاجتماعي آنذاك.

فقد كان ثمة عرب رحل بداءة يجوبون الفضاء الجغرافي التاريخ الذي يمتد من جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى تخوم البادية الشامية وصولاً إلى نهر الفرات. ومن هذه القبائل العربية ما استقر استقراراً فصلياً تبعاً لأحوال المناخ وأحوال الرعي، ومنها ما بقي على مساق الجولات والترحال، ومنها من تفاعل مع المراكز الحضارية المدنية في المشرق العربي وتمازج مع الآراميين، بما أدى تبعاً لزيادة الكثافة السكانية العربية إلى تأسيس مدن عربية وممالك استندت على الثقافة الآرامية ومعطياتها، وذلك مع الألف الأول الميلادي. وتبعاً لذلك يمكننا مناقشة تطور الكتابة العربية والقلم العربي.

ثانياً: النقوش العربية الجنوبية بشقيها الجنوبي والشمالي

تتبع هذه النقوش تطور الحضارة اليمنية منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك عبر دولة معين ومملكة قتيبان ومملكة حضرموت والدولة السبئية ثم الدولة السبئية الحميرية. ومنذ نهاية الألف الثاني ق.م، أصبحنا أمام كتابات عربية جنوبية كتبت بالخط المسند، مع الإشارة هنا إلى معالم الاختلاف الواضحة بين الخط المسند وبين الكتابة العربية الشمالية التي تطورت عن الكنعانية الآرامية رغم أن اللغة واحدة، وكنا قد أشرنا إلى احتمال أن تكون الأبجدية الجنوبية العربية والأبجدية الكنعانية الساحلية قد تطورتا عن الأبجدية السينائية.⁽²⁷⁾

كتبت النقوش على ألواح معدنية أو حجرية وأقدم ما عثر عليه يرجع عهده إلى القرن السابع قبل الميلاد. وبالإضافة على النقوش السبئية نجد أنها حوت على مواضيع عدة:

- مواضيع نذرية: أقيمت في الهياكل وقدمت للآلهة وهي محفورة على ألواح برونزية.
- نقوش ظاهرة على جدران الهياكل وغيرها تخليداً لذكرى بانها.
- نقوش تاريخية تنبئ عن أخبار المعارك والانتصارات.
- قوانين زاجرة اجتماعية منقوشة على أعمدة منصوبة في مداخل الهياكل والمؤسسات العامة.
- نقوش جنائزية.
- نقوش شرعية.⁽²⁸⁾



نقش النمارة

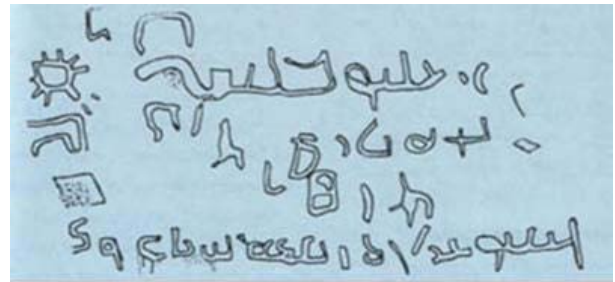
القلم الصفائي:

تؤرخ الكتابات الصفائية بين القرن الأول قبل الميلاد ومنتصف القرن الرابع الميلادي. وقد عثر عليها في مناطق الصفا في منطقة حوارة في بلاد الشام، وكذلك في شبه الجزيرة العربية وجبال لبنان وعلى نهر الفرات. تعتبر لغة هذه الكتابات شديدة الصلة باللغة العربية الحجازية.⁽³¹⁾ يزيد عدد النقوش المكتشفة عن عشرين ألفاً، وما زالت الاكتشافات مثمرة في هذا المجال. كتبت هذه النقوش من قبل العرب الرحل من عشائر العوذ والسعد وغيرهم. وتشير الدراسات إلى تشابه القلم الصفائي والتمودي وابتعادها قليلاً عن الأصل اليمني في حين أن القلم اللحياني شديد القرب من اليمني.⁽³²⁾ أما لغة هذه النقوش الثلاثة فهي شديدة الصلة بالعربية الحجازية التي انتشرت مع الفتوحات الإسلامية.

الكتابة الآرامية:

الكتابة الآرامية مشتقة عن الأبجدية الكنعانية الساحلية في بلاد الشام، والآراميون تواجدوا في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في الهلال الخصيب، وتركوا عدداً كبيراً من النقوش والكتابات أقدمها نقش (بر حداد) الذي عثر عليه في شمال سوريا، ويؤرخ في حدود القرن التاسع قبل الميلاد، ثم نقش ذكر الذي عثر عليه في حماة ويعود تاريخه إلى 800 ق.م، وكذلك نقش (برراكب) في موقع مدينة شمالاً شمالي سورية، ويعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كذلك ثمة كتابات السفارة قرب مدينة حلب، وتعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

كُتبت الآرامية على الحجارة وعلى الفخار، وفي مصر على ورق البردي واشتهر منها بردي جزيرة الفيلة في صعيد مصر.⁽³³⁾ وظلت الكتابة الآرامية تحتل بالشكل الكنعاني الساحلي القديم الذي تتفاوت حروفه استدارة وارتفاعاً وتناسقاً، إلى أن وصلت في حدود القرن الخامس قبل الميلاد إلى شكل نحت جميل يعرف بالخط الآرامي المربع الذي كتبت به العبرية، ومن ثم النبطية وبعدها التدمرية وكتابات مدينة الحضر، وكذلك السريانية بخطوطها المتعددة، وأشهر الخطوط الآرامية هو الخط الشطرنجيلي، والذي يعتبر أقدم الخطوط السريانية وأصلها جميعها، وقد ظهر هذا الخط في مدينة الرها، وهي من أهم مدائن السريان، ويشير "الدكتور البني" إلى أن أهل الرها يغلب عليهم النسب العربي وملوكهم عرب، وحالهم كحال أهل مدينة الحضر وتدمر، حيث استعملوا الآرامية في كتاباتهم.



نقش معبد رم

الكتابة النبطية:

تواجد الأنباط يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، لكن فاعليتهم السياسية بدأت منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، لتصل ذروتها في القرن الأول للميلاد والذي يليه، حيث سقطت عاصمتهم عام 106 ميلادي بيد الرومان. اتخذ الأنباط اللغة الآرامية والكتابة الآرامية في حياتهم، وقد عثر على الكتابات النبطية بين دمشق وشمال شبه الجزيرة العربية وسيناء. ومعظم هذه الكتابات يحمل تاريخاً دقيقاً، ويتناول موضوعات مختلفة.

وتُظهر حروف كتابات سيناء النبطية العائدة إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي خطوطاً قريبة من الخط العربي الذي اشتق عن الخط النبطي، بحيث يبدو أن الخط النبطي منذ ذلك الوقت يميل إلى ربط الحروف وتعليقها ببعض، والابتعاد عن الطريقة السائدة التي تفصل بين حروف الكلمة الواحدة.⁽³⁴⁾ وحسب "الدكتور محمد محفل" في دراسته "العربية كتابة ولغة"، يشير إلى أن القلم النبطي/ الآرامي/ راح يتعد تدريجياً عن أصله الآرامي بعد سقوط دولة الأنباط 106 ميلادية، وأخذ يقترب أكثر فأكثر من القلم المسند الحميري والخطوط المشتقة منه - اللحياني، التمودي، صفائي- وبذلك راح يتكون قلم نبطي متأخر له دور جذري في نشوء القلم العربي القديم بفرعيه الكوفي والنسخي.

الكتابة التدمرية:

تألفت تدمر بحضارتها في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، واستطاعت في القرن الثالث الميلادي أن تنتقل من حيز المملكة إلى إمبراطورية بحيث شملت مصر والأناضول والهلال الخصيب وشمال شبه الجزيرة العربية. وقد كتبت النقوش والكتابات التدمرية بالآرامية، وتكلم التدمريون اللغة الآرامية، وشيئاً فشيئاً مع ازدياد الفاعلية البشرية العربية، نلاحظ أن كتاباتها أخذت تكتب باللغة العربية تبعاً لتزايد الفاعلية البشرية العربية. ويبدو من المعطيات الكتابية واللغوية، أن اللغة العربية بلهجاتها الشمالية كانت لغة أصيلة في تدمر، يتخاطب بها التدمريون في حياتهم اليومية.

ثالثاً: الكتابات العربية الشمالية

تعددت الفرضيات حول تطور الكتابة العربية الشمالية، فمن قائل أنها تطورت عن الكتابة اليمنية (ابن خلدون - ابن النديم). ومنهم من رأى (لاسيما الإخباريين العرب: ابن النديم في كتابه الفهرست وأبو فرج الأصفهاني في كتابه الأغاني) أن أول كتابة عربية عرفت في مدينة الحيرة في الرافدين، وأن أهل الحيرة تعلموا الكتابة من أهل الأنبار. وثمة رأي يقول أن الخط العربي انتقل أولاً بشكله المسند الحميري إلى الأنبار، وهناك تم جزمه واختزاله وتشذيبه، حيث تم ابتكار الخط العربي. وهناك من يقول أن الحروف العربية اشتقت من الحروف الآرامية المتطورة وخاصة من الكتابة اللينة، حيث أصبحنا أمام رأيين، الأول يقول بتطور الكتابة العربية

إذا ما قارنا كتابة زيد ما قبل الإسلام أو نص مبكر بالخط الكوفي من كربلاء وفي معبد بل بتدمر والكتابات الأموية إجمالاً، وعلى النقود، نجد من حيث الشكل العام والأسلوب تشابهاً قوياً بينها وبين الخطوط السريانية الشطرنجية، والسرطو والنسطوري.. حتى يظن للوهلة الأولى أن النص السرياني هو عربي وبالعكس، وبينما المقارنة مع الخط النبطي تظهر الاختلاف واضحاً، ولا ننكر وجود تشابه في بعض التفاصيل بين الاثنين.^(٣٨)

خاتمة

إذن نصل من مجمل هذا الاستعراض الكتابي إلى نتيجة تقول أن العرب بعد أن كتبوا الخط المسند، استعملوا خطاً عربياً شمالياً متأثراً بالخط النبطي المتأخر، حيث أن القلم الآرامي أسهل في الكتابة من المسند، وذلك في المنطقة الممتدة من الحجاز إلى الشام، حيث كتبوا نصوصاً في القرون الخمسة للميلاد، ثم جاء خط آخر من الأنبار فالحيرة، حيث وصل إلى الشام، فالحجاز متأثراً بالخطوط السريانية والآرامية اللينة عُرفت فيما بعد باسم الخط الكوفي، وبعد فترة صاحبه خط آخر عرف بالنسخي (يرى بعضهم أنه امتداد للخط النبطي). وقد نشأ عن الخطين الأول والثاني أصناف وتلاوين الكتابات العربية المعروفة، المختلفة تبعاً للفوارق الجغرافية من شرقية ومغربية وفارسية وتركية.^(٣٩)

الجدير ذكره: أن الخط الكوفي استخدم في الأغراض التذكارية وفي سك النقود والنقش على الحجارة والمعادن بعامه، وفي نسخ القرآن حتى القرن الثاني عشر الميلادي. كما ظهر الخط النسخي الحجازي، ويبدو أن النسخ الحجازي أقدم من الكوفي. وقد تنوعت الخطوط تبعاً للانتشار الإسلامي في الجهات الأربع، فظهرت أنواع عديدة أهمها: الثلث - النسخ - الرقعة - الديواني - الكوفي - الفارسي، ومازال النسخي يتقدم الخطوط الأخرى ويستخدم أكثر من غيره.^(٤٠)

والكتابة العربية أصبحت كتابة إسلامية، وصلت حيثما وصل القرآن، فانتشرت عند الفرس والأتراك والهنود والملايو وبعض شعوب أفريقيا الشمالية والوسطى والشرقية والغربية. ونتج عن انتشار الخط العربي بين الشعوب ظهور أنواع جديدة من الخطوط، ففي المغرب العربي والأندلس ظهر الخط المغربي، وتمكن الفرس من ابتكار خط رشيق أسموه "نستعلق"، حيث استخدموه في المخطوطات وطباعة الشعر، أما الأتراك فابتكروا خط الرقعة السلس وخط الثلث والأجازت.^(٤١)

إن قصة الكتابة العربية تبدأ من المشرق العربي في طور الكتابة المسماية والتي أضحت كتابة المشرق العربي القديم في عصوره التاريخية، وكتابة الشعوب المجاورة، ثم تطورت هذه الكتابة عبر الأبجدية الكنعانية الساحلية، ليتلقفها الآراميون ثم يستمد العرب المنجز الكتابي الآرامي، ثم السرياني بوجوهه المختلفة، ليصيغوا الكتابة العربية التي صارت في القرآن كتابة عالمية محفوظة في سفر الحضارة الإنسانية.

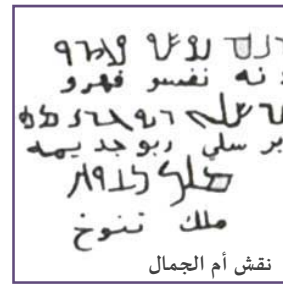
الشمالية عن الخط السرياني بأنواعه، والثاني يشير إلى الخط النبطي في أطواره المتأخرة.

الدكتور عدنان البني يرى أن الكتابة العربية الشمالية تمت في وسط حجازي - شامي حضري، والبحث عن أصول تلك الكتابة في المسند هو أمر صعب ومعقد، لاسيما أن تطور المسند أعطى كتابات عربية معروفة لدى الثموديين والصفائيين واللحيانيين. وبالمقابل، فإن التشابه واضح بين الكتابة العربية الشمالية من كوفية ونسخية مع الآرامية ومولداتها كالنبطية والسريانية والكتابات التدمرية والحضرية، وعليه فإذا ما تتبعنا الكتابات العربية ما قبل الإسلام وهي ثمان كتابات تتضمن نصاً عربياً أو جاءت بكتابات عربية ولغة عربية لوجدنا أن سبعة منها قد وجدت في القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام وفي منطقة الأنباط حصراً، وهي:

- ١- كتابة عبادة: تعود للقرن الأول الميلادي، وعثر عليها في منطقة النقب، وهي كتابة نبطية تحمل نصاً عربياً.
- ٢- كتابة أم الجمال الأولى: عثر عليها شمال شرق الأردن، تعود للقرن الثالث الميلادي، نبطية وتحمل نصاً عربياً.
- ٣- كتابة النمارة: عثر عليها في شرق جبل العرب في الشام، تعود إلى مطلع القرن الرابع الميلادي، وهي نبطية تحمل نصاً عربية.
- ٤- كتابة معبد رم: تعود للقرن الرابع الميلادي، وتشكل مرحلة انتقالية بين النبطية والعربية وعثر عليها شرق العقبة.
- ٥- كتابة أم الجمال الثانية: تعود لمطلع القرن الخامس الميلادي، وتعتبر مرحلة بين النبطية والعربية.
- ٦- كتابة جبل أسيس: في جنوب شرق دمشق، عربية لغة وكتابة، وتعود لأواخر القرن السادس الميلادي.
- ٧- كتابة حران: في منطقة اللجاة، شمال جبل العرب في الشام،

تعود لأواخر القرن السادس الميلادي، وهي عربية الكتابة واللغة.

ومقابل هذه الكتابات، نجد كتابة ثامنة، هي كتابة خربة زيد، عثر عليها في شمال الشام بين حلب والفرات، تؤرخ في مطلع



القرن السادس الميلادي، هذه الكتابة مغايرة للكتابات ذات الأصول النبطية، وهي عامة أقرب شكلاً إلى الكتابة السريانية والكوفية وكتابات النقود الإسلامية الأولى. وبناءً على ذلك؛ يقترح "الدكتور البني" أن هناك وسطان لبداية الكتابة العربية هما: نبطي في جنوب بلاد الشام، وسرياني في شمالها، وقد عمل كلاهما وتطور مستقلاً عن الآخر. "فالعرب كانوا يمثلون المنطقة الشمالية والرافدين، ويوطدون ثقافتهم الذاتية في أرجاء الهلال الخصيب، ويكتبون عربيتهم بكتابتهم الخاصة، بعد أن استخدموا في مراكزهم الحضورية في البتراء وتدمر والحضر والرها وغيرها، الآرامية لغة وكتابة".^(٣٧)

الهوامش:

- (٣٠) البني، موجه سابق.
- (٣١) محفل، مرجع سابق.
- (٣٢) هبو، أحمد، الأجدية، دار الحوار، ص ٩١.
- (٣٣) المرجع السابق، ص ٨٣.
- (٣٤) هبو، مرجع سابق، ص ٨٤.
- (٣٥) محفل، مرجع سابق.
- (٣٦) محفل، مرجع سابق.
- (٣٧) البني، مرجع سابق.
- (٣٨) البني، مرجع سابق.
- (٣٩) البني، مرجع سابق.
- (٤٠) هبو، مرجع سابق، ص ٨٨.
- (٤١) هبو، مرجع سابق، ص ٩٠.
- (١) البني، عدنان، المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم، دمشق ٢٠٠١ - إصدار خاص، ص ٩.
- (٢) بلاد الأسقوثيين تقع الآن في سهوب أوكرانيا.
- (٣) خليف، بشار، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم، مركز الإنماء الحضاري - حلب ٢٠٠٤، ص ٥٣.
- (٤) البني، مرجع سابق، ص ١٠.
- (٥) خليف، مرجع سابق.
- (٦) الجديد حول شرق القديم، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨.
- (٧) مرجع سابق.
- (٨) مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ١٩٩٢ (العددان ٤١ - ٤٢)، ص ٩.
- (٩) المرجع السابق، ص ٩.
- (١٠) أبو عساف، علي، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، سورية ١٩٨٨.
- (١١) البني، مرجع سابق، ص ٣٣.
- (١٢) مرعي، مرجع سابق، ص ١٢.
- (١٣) مرعي، مرجع سابق، ص ٨.
- (١٤) البني، مرجع سابق، ص ٣٤.
- (١٥) مرجع سابق، ص ١١٠.
- (١٦) خليف، مرجع سابق.
- (١٧) البني، مرجع سابق، ص ١٤٨ - ١٤٩.
- (١٨) نشأت الممالك الآرامية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وامتدت من الفرات حتى حدود فلسطين والساحل الكنعاني.
- (١٩) محفل، محمد، العربية لغة وكتابة، موقع دورية كان التاريخية الإلكترونية، مجلة التراث العربي.
- (٢٠) المرجع السابق.
- (٢١) البني، مرجع سابق، ص ١٤٩.
- (٢٢) محفل، مرجع سابق.
- (٢٣) النقوش الثمودية: تم اكتشافها في أماكن مختلفة من وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ويعود تاريخها بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الخامس الميلادي.
- النقوش الصفائية: نسبة إلى تكون الصفا في منطقة حوران في الشام ويتراوح تاريخها بين القرن الأول قبل الميلاد ومنتصف القرن الرابع الميلادي. لغة هذه النقوش شديدة الصلة بالعربية الحجازية التي انتشرت مع الفتوحات الإسلامية.
- (٢٤) الكتابة السينائية: عثر عليها في جبل سيناء وكتابتها من الكنعانيين الذين كانوا يعملون في مناجم الفيروز والنحاس لحساب مصر. وقد وجد الباحثون أنها ربما تكون هذه الكتابة هي حلقة الوصل بين الكتابة التصويرية والكتابة الألفبائية. التصويرية المصرية الهيروغليفية والألفبائية الكنعانية الساحلية. انظر: الدكتور أحمد هبو، الأجدية، دار الحوار، سورية، ١٩٨٤، ص ٦٨.
- (٢٥) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساق، بيروت ٢٠٠١، ص ٤.
- (٢٦) محفل، محمد، مرجع سابق.
- (٢٧) البني، عدنان، قصة الكتابة، ٢٠٠٧. (إصدار خاص)
- (٢٨) حتي، فيليب، جبرائيل جبور، ادوار جرجي، تاريخ العرب، دار الكشف للنشر، بيروت ٢٠٠٧، ط ١٢.
- (٢٩) محفل، محمد، العربية كتابة ولغة.